

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

في القرآن الكريم

الدكتور: صالح داسي

أستاذ مساعد بالمعهد الأعلى للحضارة الإسلامية

المقدمة

شعر الإنسان منذ القدم بضرورة فطرية إلى قوة يلتجئ إليها لحماية عند الأخطار والشدائد، ويطمئن إليها كلما داهمه خطر، من رياح وأمطار وظلمة، فكان يقدم لها القرابين كلما جاءه موسم خصب، أو أقدم على عمل جليل، أو شعر بسعادة... فطفق يبحث عن هذه القوة الخفية المحتجبة كل بحسب تصوره ومؤهلاته الفكرية.

فوجد فلاسفة اليونان ينزهون الله إلى درجة التجريد، والكمال المطلق، وأذكر من بينهم أرسطو مثلاً. وهناك من جسمه مثل المصريين القدامى الذين اتخذوا (العجل) رمزاً للقوة و (البقرة) رمزاً للرحمة، فعبدهما إلا أنهم تجاوزوا مرحلة التعدد والتجسيم إلى مرحلة التوحيد في عهد (أخناتون).

أما الهنود فقد عبدوا الحيوانات، وما زالوا إلى يوم الناس هذا يقدسون البقر، فجمعوا في عبادتهم بين الأوثان والأنصاب والحيوان، في حين أننا نجد الفرس قديما عبدوا القوى الكونية مثل النور والظلمة والقوى النفسية الغضبية مثل الشر؛ فأشاروا إلى النور بـ (اهورا) وإلى الشر والظلام بـ (مزدا) و (اهرمن).

وإذا ما تصفحنا الكتاب المقدس نجد - في العهد القديم منه - اليهود يصفون الله بأوصاف فيها التجسيم والمثابة للحوادث حتى كأن الله يصافح أبناءهم، فنسبوا إلى الله أعمال الإنسان، كما قالوا إنه يحل في بعض الأشجار.

أما المسيحية فإنها تقول بالتثليث «الأب والابن والروح القدس». أما العرب في جاهليتهم فكانوا خليطا من أهل الكتاب الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، ومن الذين يعبدون اللات والعزى ومناة الثالثة. فجاء الإسلام يخلص الإنسانية كلها من المعبودات الباطلة؛ لذلك اهتمت في هذا البحث بـ (الألوهية من خلال القرآن الكريم)، كدراسة موضوعية، تستجيب لدواعي التفسير الموضوعي في العصر الحديث. فكان منهج البحث مشتملا على خمسة فصول :

الفصل الأول : الألوهية لغة وتاريخا.

تناولت فيه الألوهية في اللغة، الألوهية في المفهوم الفلسفي والتاريخي.

الفصل الثاني : الألوهية في القرآن.

تعرضت فيه إلى الفرق بين الإيمان والعقيدة والتوحيد، كما ناقشت فيه برهان الخلق، وبرهان العناية وبرهان أهل الصناعة، كما أشرت إلى طرق معرفة الله، مع ذكرى لمنهج إبراهيم عليه السلام في الاستدلال على وجود الله.

الفصل الثالث : منهج الرسل في الدعوة إلى الله.

اقتصرت فيه على دعوة إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

الفصل الرابع : الألوهية باعتبار الذات والصفات والأفعال. تناولت فيه أسماء الله الحسنی وصفاته، والوحدانية والآيات القرآنية المفيدة لذلك، وإبطال ابن رشد لدليلي الجوهر الفرد والممكن الواجب، كما أشرت إلى الآيات المحكمة والآيات المتشابهة، وختمت الفصل بدليل الخلق الذي ناقشت فيه نظرية النشوء والارتقاء.

الفصل الخامس : عناية الله بالإنسان.

ذكرت فيه العلاقة بين الله والإنسان من حيث الخلق المتناسق ومن حيث تسخير الكون له ومن حيث تمييزه بالعقل وتعهده بالرسول، وأنهيت الفصل بمسألة التكليف والتحدي المشترك بين الجن والإنس، وما يستتبع ذلك من جزاء وعقاب.

وختاما فإني بهذا العمل المتواضع لكتاب الله، أرجو أن أكون قد وفقت بعون الله إلى توضيح الألوهية، وأجلت ما اعتراها من آثار القرون، بما استبان لي من آيات الذكر الحكيم، وبما استفدته من الدراسات المتميزة المساعدة على ذلك.

أسأل الله التوفيق وتحقيق القصد، والنفع بهذا العمل إنه سميع مجيب.

الفصل الأول الالوهية في اللغة والتاريخ

الالوهية :

قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص).

يمكن تناولها من حيث :

- (1) المدلول اللغوي لكلمة «الله».
- (2) الله عند الفلاسفة والأمم غير الكتابية السابقة.
- (3) الله في الديانتين اليهودية والنصرانية.
- (4) عقيدة الجاهليين من سكان الجزيرة العربية في الله.
- (5) الله في القرآن الكريم، وهو ما سأتناوله بالبحث والبيان.

(1) المدلول اللغوي لكلمة الله

الله : من أَلَهَ : أَلَّهًا وإِلَاهَةً : تحيّر، وعلى فلان : وَلَهَ : اشتد جزعه.
أَلَّهَهُ : اتخذَهُ إلهًا. تَأَلَّهَ : تنسَكَ وتعبدَ. وبمعنى تحير(1).
الله : عَلَّمَ على الذات الواجبة الوجود تعالى وتقدس(2).
قال محمد الطاهر ابن عاشور «وقد التزم في لفظ الجلالة تفخيم لاهه»(3).
إله : الإله عز وجل، وكل ما اتخذ من دونه معبودا إله عند متخذه،
والجمع آلِهَة، وهي الأصنام، سمووا بذلك لاعتقاد متخذيها أن العبادة تحق
لها، وأسماءهم تتبع اعتقاداتهم، لا ما عليه الشيء في نفسه»(4).
لكن هل اسم الله مشتق أم غير مشتق؟ ذهب أصحاب دائرة المعارف
الإسلامية إلى القول بعدم اشتقاقه، خلافا لابن منظور الذي أورد صيغا

(1) ابن منظور : لسان العرب م 87/1. معجم متن اللغة : أحمد رضا 199/1 أيضا : دائرة المعارف الإسلامية 2/559.

(2) أحمد رضا : معجم متن اللغة م 199/1 بيروت 1377 هـ

(3) محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير 15/1 ص 165.

(4) ابن منظور : لسان العرب م 1 ص 87.

تفيد الاشتقاق. أما فخر الدين الرازي فتناول في الباب التاسع من كتابه «مفاتيح الغيب» المباحث المتعلقة بالله. فذكر مختلف الأوجه الاشتقاقية لله. منها :

- 1 - الإله مشتق من «ألِهت» إلى فلان أي سكنت إليه.
- 2 - إنه مشتق من «الْوَلَه» وهو ذهاب العقل.
- 3 - إنه مشتق من «لاه» إذا ارتفع، والحق سبحانه وتعالى هو المرتفع عن مشابهة الممكنات ومناسبة المحدثات.
- 4 - إنه مشتق من «أله» في الشيء إذا تحير فيه، ولم يهتد إليه.
- 5 - إنه مشتق من «لاه يلوه» إذا احتجب خلافا لما أورده الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور في تفسيره «التحرير والتنوير» من أن «أصله لاه، مصدره لاه يليه، ليها إذا احتجب سمي به الله تعالى» (5).
- 6 - إنه مشتق من (أله الفصيل)، إذا ولع بأمره، والمعنى أن العباد، مولعون بالتضرع إليه.
- 7 - إن اشتقاق لفظ الإله من (أله الرجل) يأله إذا فزع من أمر نزل به، فآله أي أجاره، والمجير لكل الخلائق من كل المضار، هو الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (المؤمنون : 89).

ومع هذه الأوجه الاشتقاقية التي أوردها فخر الدين الرازي في «مفاتيح الغيب» فإننا نجد من القائلين بعدم اشتقاق اسم (الله) وذلك في قوله : «والمختار عندنا أن هذا اللفظ اسم علم على الله تعالى، وأنه ليس بمشتق البتة» (6). وعلل ما ذهب إليه بقوله : «لو كان لفظا مشتقا، لكان معناه كليا، لا يمنع نفس مفهومه من وقوع الشركة فيه، لأن اللفظ المشتق لا يفيد أنه شيء ما مبهم حصل له ذلك المشتق منه. ولو كان مشتقا لما كان قولنا «لا إله إلا الله» توحيدا مانعا من وقوع الشركة فيه بين كثيرين» (7) والذي جعله يرجح عدم اشتقاق اسم «الله» اعتماده على علماء اللغة مثل : الخليل بن

(5) محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير ج 1 ك 1 ص 165.

(6) فخر الدين الرازي : مفاتيح الغيب ج 3 ص 83.

(7) المصدر السابق ج 1 ص 83 وما بعدها.

أحمد، وسيبويه، وهذا واضح في قوله في بداية الباب التاسع : «وهو قول الخليل بن أحمد، وسيبويه، وقول أكثر الأصوليين والفقهاء»(8).

أما (الله) في الكلدانية فهو «إلو، أو إل، ومنها باب إل لبابل، أي باب الله، و(إربل) : أي أربعة آلهة»(9).

والكلام عن الله يقودنا إلى معرفة إطلاق كلمة «اللهم». قال الفراء : «معنى اللهم، يا الله أم بخير»(10) وقال الخليل بن أحمد الفراهيدي وسيبويه وجميع النحويين: «اللهم» بمعنى، يا الله»(11) وأول من استعمل كلمة «اللهم» أمية بن أبي الصلت(12). واستعملت كلمة اللهم في الصلوات والأضاحي، وعقد الأحلاف، وفي الدعوات واللعنات(13).

2) الألوهية في المفهوم الفلسفي والتاريخي :

أ. الإله عند اليونانيين : كان الأقدمون من الفلاسفة يقولون بالإله «المقيد» لأنهم يؤمنون بتعدد الآلهة أو بوجود إلهين يتناظران، وهما إله الخير وإله الشر أو إله النور وإله الظلام.

فمذهب أرسطو في الإله «أنه كائن أزلي أبدي مطلق الكمال لا أول له ولا آخر، ولا عمل له ولا إرادة»(14) فالإله عنده (لا يقوم أبدا بأي عمل فليست له رغائب ولا إرادة ولا غرض، وفاعليته نقية خالصة إلى حد تجعله لا يفعل أبدا، وهو كامل كاملا مطلقا.

فأرسطو «يتصور الله روحا تعي ذاتها، وهي روح غامضة خفية»(15). ويذهب أغلب مؤرخي الفلسفة إلى أن إله أرسطو هو المحرك الذي لا يتحرك، إلا أنهم يهتمون كثيرا من الصفات التي نسبها أرسطو إلى الله»(16)

(8) المصدر السابق ج 1 ص 83.

(9) النشرة العلمية للكلية الزيتونية س 1 ع 1 ص 51 (الله : بحث للدكتور أحمد بكير).

(10) ابن منظور : لسان العرب م 1 ص 89.

(11) ابن منظور : لسان العرب م 1 ص 89.

(12) أبو الفرج الأصبهاني ج 3 ص 187.

(13) دائرة المعارف الإسلامية م 2 ص 592 مادة الله.

(14) عباس محمود العقاد : حقائق الإسلام وأباطيل خصومه. بيروت ط 1. 1971 ص 47.

(15) ويل ديورانت : قصة الفلسفة (ترجمة أحمد الشيباني) بيروت، ص (16).

(16) أحمد فؤاد الأهواني : في عالم الفلسفة : 44.

فإنه عنده هو المحرك الذي لا يتحرك، وهو البرهان الذي اختص به أرسطو واشتهر به.

فمن صفات الله عند أرسطو:

1 - أنه (موجود) ما دامت الحركة التي تتوقف عليه أزلية ومن صفات هذا المحرك.

2 - أنه تام الوحدة لان الحركة الأزلية التي نشأت عن وجوده متصلة، والاتصال يقتضي الوحدة. والله.

3 - حي : لا تأخذه سنة ولا نوم، وحياته دائمة أزلية.

فالمحرك الأول يحرك العالم باعتبار أنه مطلق، والمحرك الذي لا يتحرك معشوق.

يقول الدكتور أحمد فؤاد الأهواني : « هذا الموجود الكامل المعشوق الكامل الذي لا يجذب العالم نحوه، هو الذي تسميه الفلسفة الله » (17).

فهذا كلام شعري يعتمد التخيل والوصف، فالله عند أرسطو (غريب تماما عن العالم، وليس له عليه أي تأثير مباشر، وهو وإن كان المحرك الأول، فإنه ثابت لا يتحرك، ولا يمكنه أن يدرك الكون، ويعلمه، ولا يمكنه أن يدخل في أموره) (18). إلا أنه سما بالإله من التحدد والتجسيم إلى الروح والتفرد. فالله هو الكون كله، وليس الكون كله هو الله، باعتبار أن الكون دال على وجود موجد، وليس هو عين الموجد.

وعند الرواقيين (الله) والعالم ماديان، والله والعالم متصلان وجودهما واحد ومن نار الله وروحه ينشأ العالم (19).

ب. الإله عند المصريين :

كانت مصر القديمة قبل توحيدها مقسمة عدة أقسام، وكان لكل قسم معبوده المحلي أو معبوداته من الحيوان والطير مثل (الإله حوريس) وهو

(17) أحمد فؤاد الأهواني : في عالم الفلسفة : 47.

(18) البر ريقو (أستاذ الفلسفة بجامعة باريس) : الفلسفة اليونانية، أصولها وتطوراتها ترجمة الدكتور عبد الحليم محمود ص 172.

(19) محمد البهي : الجانب الإلهي في التفكير الإسلامي ج 2 ص 66.

اسم لصقر، ثم اعتقدوا في الله (رع) إله الشمس، ثم عبدوا الإله «أمون» إله طيبة، كما عبدوا البقرة باعتبارها رمزا للرحمة والأمومة والبركة، كما عبدوا العجل (ايبس) باعتباره رمزا للقوة والمعين على العمل والإنتاج. ومن المعبودات التي عظم شأنها (رع) و (أمون) و (صور) و (بتاح) و «(أوزوريس)»(20) فقد مرت المعبودات المصرية بمراحل ثلاث :

(1) مرحلة تعدد الإله، (2) مرحلة تناقص عددها، (3) مرحلة التوحيد. وهي مرحلة «أخناتون» وفلسفته التي قرب فيها أعظم القرب من التوحيد. فاعتقد أخناتون أن للكون إلهًا واحدًا لا شريك له هو خالق كل شيء، وإليه يرجع كل شيء، وقد رمز لقوته بقرص الشمس، كما يمكن أن يرمز إليه بتمثال لأنه موجود في كل شيء(21).

فالأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب مرت بمراحل ثلاث :

(1) مرحلة التعدد، (2) مرحلة التمييز والترجيح، (3) دور الوحدانية.

ج : الله عند الهنود

يقول الهنود بتناسخ الأرواح وبالخلول. يقول العقاد : «تعززت في الهند عبادة «الطوطم» فعبدوا الحيوان على اعتباره جدا حقيقيا أو رمزا للأسرة ثم القبيلة، ثم آمنوا بأن الله يتجلى في كل شيء ويخص بعض الأحياء بالخلول فيه، كما آمنوا بتناسخ الأرواح(22)، وهياكلها كانت تضم طوائف من الأرباب منها ما يتعلق بالحيوانات، ومنها ما يتعلق بالأوثان والأنصاب مثل (بوذا) وقمة التجرد عندهم في (الكارما) و (النرفانا).

يقول العقاد في كتابه «حقائق الإسلام» وكلتاهاما تحسب من قبيل المعاني الذهنية، وقل أن توصف بوصف الذات الإلهية(23)، ومن أشهر آلهتهم «بوذا» نسبة إلى (بوذا) الذي ولد سنة (650 ق.م)(24).

(20) أبو الفرج رضوان : مصر وحضارتها ص 143.

(21) المرجع السابق ص 144.

(22) العقاد : الله بيروت ط 1 1970 ص 91.

(23) العقاد حقائق الإسلام بيروت ط 1971 ص 55.

(24) هنري أركون : البوذية (تر.) هنري زغيب ص 26.

د . الإله عند الصينيين :

الصينيون يقدسون الأسلاف إلى درجة العبادة، كما يقدسون العناصر الطبيعية من سماء وشمس وقمر وكواكب وسحب ورياح. وأكبر هذه الآلهة إله السماء «شانج تي» (25) وليس لأهل الصين رسل وأنبياء، بل لهم معلمون ومربون يأتي في مقدمتهم «كنفيشيوس». وكان (كنفيشيوس) يوصي بأن نقابل السيئة بالعدل، وأن نقابل الإحسان بالإحسان، ولما مات (كنفيشيوس) (478 ق.م) أقاموا له الهيكل وعبدوه.

هـ . الإله في بلاد الفرس :

يلتقي الأقدمون من الفرس مع الهندي في عبادة النور (أهورا)، باعتبار أن الفرس عندهم إله للنور هو (أهورا) وإله للشر والظلام (مزدا) أو (هرمز) و(أهرمن). ويعتقد المجوس أن «زروان» أبو الإلهين : إله النور والظلام (هرمز) و (أهرمن).

كما ظهر في الفرس زرادشت على غرار «كونفشيوس» في الصين. ولد زرادشت حوالي سنة 660 ق . م ، ت 583 ق . م) وخلاصة ما جاء به إنكاره الوثنية وجعل الخير المحض من صفات الله، ونزل بإله الشر إلى ما دون منزلة المساواة بينه وبين الإله الأعلى» (26). من خلال ما تقدم ندرك أمرين : أولهما نشوء ظاهرة التعدد الوثنية. وثانيهما ظهور مفكرين من الفلاسفة أو ما يعبر عنهم بالـ (معلمين). ثاروا على هذه الظاهرة، واتجهوا نحو التقليل من كثرة الآلهة، وساروا بالألوهية من التجسيد إلى التجريد.

و . الإله في الديانتين اليهودية والنصرانية :

أ - عند اليهود : يقال للإله بالعبرانية (واله شموث). ففي سفر الخروج إن الله يخافونه : «فخافتا القابلتان الله ولم تفعلتا كما أمرهما ملك مصر... الخ» (27).

(25) العقاد : الله : 190.

(26) العقاد : الله ص 107 وانظر الشهرستاني : الملل والنحل.

(27) العهد القديم سفر الخروج. الإصحاح الأول.

وعندهم أن الله يُرى، وممن رآه موسى. جاء في الإصحاح الأول سفر الخروج ما يلي: «وكان موسى يرعى غنم يثرون حمية كاهن ميدان فساق الغنم إلى برية، وجاء إلى جبل الله بحوريب، وتراءى له الرب بلهب النار في وسط العليقة» (28)، فنظر إلى العليقة تتوقد فيها النار، وهي لم تحترق، فقال موسى أنطلق، وأنظر إلى هذا المنظر العظيم لم لم تحترق العليقة؟ ورأى الله أنه جاي لينظر، فدعاه من جوف العليقة. وقال : موسى موسى : فقال ها أنذا هو فقال له : لا تدن إلى ها هنا، حل الحذاء من رجلك، من أجل أن المكان الذي أنت فيه قائما أرض مقدسة. وقال له : إني أنا الله، إله آبائك. إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، فغطى موسى وجهه من أجل أنه خشي أن ينظر نحو الله (29).

من هذا النص ندرك الاعتبارات التالية :

أولا : وصف الله بأوصاف الحوادث مثال ذلك : وتراءى له الرب، فالله الحق لا يتراءى للعين الباصرة المجردة.

ثانيا : حلول الله في العليقة، ولماذا خصصت العليقة بهذا الحلول؟ وهي النبتة الشائكة التي لا يؤكل ثمرها، ولا تعلق كثيرا.

ثالثا : هناك تشابه وتباين في الآن نفسه مع النصوص القرآنية فمجال التباين هو ما ذكرت. أما مجال التشابه فيتمثل في :

(1) النار التي تراءت لموسى في جبل طوى. قال تعالى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه : 9 - 10).

(2) مناداة الله لموسى، فدعاه من جوف العليقة. وقال : موسى موسى «هذه المنادة تتشابه مع ما جاء في سورة طه من قوله تعالى :

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ (طه : 11).

(3) خلع الحذاء، أو حله فقد ورد في النص : «فقال له : لا تدن إلى ها هنا حل الحذاء من رجلك، من أجل أن المكان الذي أنت فيه قائما أرض مقدسة»

(28) نبات شياكة معرش من فصائل الورديات له زهور صغيرة وردية اللون وله ثمار كثمار التوت.

(29) العهد القديم : الإصحاح الأول : سفر الخروج.

وهو ما يتطابق مع ما جاء في قوله تعالى : ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ
بِالنَّوَادِ الْمُقَدَّسِينَ طَوًى﴾ (طه : 12).

لكن ما اسم هذا الإله حسب الديانة اليهودية؟

نجد في العهد القديم ما نصه : «قال موسى لله هو ذا أنا أذهب إلى بني
إسرائيل، وأقول لهم إله آبائكم أرسلني إليكم، فإن قالوا لي ما اسمه؟ ماذا
أقول لهم؟ فقال الله لموسى «أهيه إشراهي» (30).

وقيل «إنه عليه السلام أول من سمي الإله «يهوا» (31).

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الله في اللغة العبرانية «يهوى»
Yahvé (32).

وقيل الله من «الوهيم» Elohim العبرانية بمعنى آلهة.

وقد استبعد الدكتور أحمد بكير في دراسته عن «الله» أن يكون الله من
«الوهيم» العبرانية وذلك في قوله: «ولا صحة لما يقال: إنها من الوهيم
العبرية» (34). وقد يكون استبعاده هذا مخرجا، وهو أن الوهيم تتعلق بالآلهة
التي فيها معنى التعدد والكثرة، وهذا يتنافى مع الله الذي فيه الوحدة والتفرد
وعدم المشابهة والمماثلة، إن معظم الدارسين لكتب الأديان ذهبوا مذهب أن
الله في العبرانية من يهوىYahvé.

هذا وإن اليهود كانوا قبل موسى عليه السلام يعبدون الأصنام
والأوثان، وهو ما جعل البعض من الباحثين يرى أن الله يطلق على (الوهيم)
فلما جاءهم موسى بالبينات (دعاهم إلى التوحيد، ونبذ الأصنام والأوثان...
ولكنهم ظلوا بعد موسى عليه السلام ينسبون إلى الله أعمال الإنسان
وحركاته) (35) وهذا واضح في قوله تعالى :

﴿فَكَذَّبَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا

(30) العهد القديم : الإصحاح الاول سفر الخروج.

(31) العقاد : الله : 129.

(32) دائرة المعارف الإسلامية م 2 ص 560.

(33) عبد الله البستاني : البستان ج 1 ص 59.

(34) الدكتور أحمد بكير : بحث الله. النشرة العلمية للكلية الزيتونية ع 1 س 1 ص 51.

(35) العقاد : الله : 130.

إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى، فَتَنَسَّى أَفْلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَزْجِعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا، وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ
ضَرًّا وَلَا نَفْعًا» (طه : 87 - 89).

ب - الإله عند المسيحيين : تطورت الألوهية بعد ظهور عيسى، فانتقلت
من الإله لأبناء إبراهيم في الجسد إلى الإيمان بالإله لأبناء إبراهيم في
الروح (36) وكان اليهود قد فهموا «ملكوت الله» على معنى غير الذي فهموه
وتوارثوه من أيام السبي، وزوال مملكة داود وسليمان عليهما السلام. كما
أن أنبياءهم، وأنبياءهم الصغار (37) قد بشروا بالمسيح قبل عصر الميلاد
ببضعة قرون. ولما جاء المسيح عليه السلام وجد بلادهم في قبضة الدولة
الرومانية وهي في قوتها، واليهود عاجزون عن مقاومتها وقد يئسوا من
الخلاص على أيدي الظافرين، وتحولوا من وصفه المخلص بالقوة والبأس
إلى وصفه بالرحمة والحنان.

يقول العقاد «فتركبو مسيحا في عالم الروح، وعلم الصالحون منهم أن
الخلاص المنتظر إنما هو خلاص النفوس والضمائر بالتوبة والتطهير» (38).

فالمسيح أيقظ فيهم الضمير، فلم يشهد التاريخ قبل المسيح رسولا رفع
الضمير الإنساني، كما رفعه، ورد إليه العقيدة كلها كما ردها إليه» (39).

جاء المسيح يدعو اليهود إلى التوبة والاعتسال من الذنوب، ويرمز إلى
التطهر من الدنس بالتطهر في بحر الأردن على يديه، ويبشرهم بقرب
«ملكوت الله» أو ملكوت السماء (40). فعلم المسيح بني إسرائيل أن الله
(محبة) وأن أقرب الناس إلى الله من أحب الله وأحب خلق الله، ومنهم
المطرودون والعصاة» (41).

ولما انقضى عصر السيد المسيح وعصر بولس القديس، اتصلت المسيحية
بالأمم الأجنبية وفي مقدمتها الأمة المصرية، فشاعت في المسيحية بذلك عقيدة

(36) العقاد : حقائق الاسلام : 61.

(37) الأنبياء الصغار وهم الاثنا عشر منهم.

يوشع، يونس بن متى، ميئا، زكريا، بلاخي
من محاضرة خطية للشيخ محمد الفاضل ابن عاشور.

(38) العقاد : اش : 165.

(39) العقاد : اش : 167.

(40) العقاد : اش : 164.

(41) العقاد : اش : 168.

إلهية جديدة وهي عقيدة الثالوث المجتمع من الأب والابن والروح القدس»(42). ففحوى العقيدة الإلهية كما ظهرت في الديانة المسيحية، أن الله واحد من أقانيم ثلاثة هي : الأب، والابن والروح القدس. وأن المسيح هو الابن من هذه الأقانيم، وهو ذو طبيعة واحدة في مذهب فريق من المسيحيين. وذو طبيعتين إلهية وإنسانية عند فريق آخر(43).

أما المسيح عليه السلام فإنه أشار بتعريفات كثيرة له، ورواها عنه كتاب الأنجيل منها «أنا ابن الإنسان» أو «أنا نور العالم» أو «أنا خبز الحياة» أو «أنا الطريق والحق والحياة» أو «أنا الراعي الصالح» و«أنا المعلم والسيد» ولم يذكر نفسه باسم المسيح، ولكن الحوارى بطرس سماه به»(44).

فالإله الذي يدعو إليه المسيح هو إله واحد، فجمع المسيح بين التوحيد والمحبة. فالأب والابن والروح القدس يكونون الإله الواحد والابن والروح القدس لا يختلفان عن الأب.

فالالوهية في المسيحية فيها مسحة العلاقة بين الروح والجسد. ومسحة العلاقة بين الإنسان وخالقه إلا أنها تمزج التجسيد بالتجريد، وتركز على الجانب الأخلاقي والشعور الوجداني.

يقول العقاد : «فالعلاقة بين الإنسان وخالقه في بشارة السيد المسيح هي العلاقة بين الروح ومصدرها وبين الحياة وينبوعها وبين المكفول وكافله وبين الرعية وراعيها، ولم تتفق هذه الصفة في ديانة واحدة من ديانات ذلك العصر كما اتفقت في الديانة المسيحية»(45).

ثم يقول : «والإيمان بالله على تلك الصفة فتح جديد لرسالة السيد المسيح لم يسبقه إليها في اجتماع مقوماتها رسول من الكتابيين ولا غير الكتابيين»(46) فالمسيح إله وإنسان في آن واحد عند المسيحيين، وهذا التلاقي بين التجسيم والتجريد أو بين الناسوت واللاهوت يتنافى مع تنزيه الله الذي هو مخالف للحوادث، والذي لا شبيه له ولا مماثل.

(42) العقاد : حقائق الاسلام : 61.

(43) المرجع السابق : 61.

(44) العقاد : الله : 169.

(45) العقاد : الله : 170.

(46) العقاد : الله : 174.

(4) عقيدة الجاهليين من سكان الجزيرة العربية :

لنتناول مسألة الألوهية في الجزيرة العربية قبل الإسلام لا بد من معرفة الفروق العقائدية بين عرب الجنوب وعرب الشمال، وذلك بعد تحديد العصر الجاهلي.

حدد العصر الجاهلي بالجزيرة العربية ما بين (525 م إلى 622 م) (47) ورد (الله) : (الإله) في نقشين من نقوش عرب الجنوب أحدهما معيني عثر عليه عند العلا، والآخر سبيء، ولكنه يرد بكثرة على شكل هـ ل هـ في النقوش اللحيانية التي ترجع إلى القرن الخامس ق . م ولحيان كما يتضح أنها أدخلت عبادة الإله من الشام فكان أول مركز لعبادته في بلاد العرب، ويرد الاسم (هلاله) Hallah في نقوش الصفا التي ترجع إلى خمسة قرون قبل الإسلام وعبد الله معناه : خادم، أو عابد الله، واسم أبي محمد هو عبد الله.

قال فليب حتي : «إن الحياة القومية النظامية في بلاد العرب الجنوبية القديمة، كانت الآن ممزقة شر تمزيق، سادت الفوضى في المعترك السياسي، كما سادت في المعترك الديني، وكانت لحظة هيأت النفوس لظهور زعيم ديني وقومي عظيم» (48).

أما في شمال الجزيرة فهناك رواية أوردها اليعقوبي في كتابه «التاريخ» مفادها : «خرج عمرو بن يحيى ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر إلى أرض الشام وبها قوم من العمالقة يعبدون الأصنام، فقال لهم : ما هذه الأوثان التي أراكم تعبدون؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها، نستنصرها، فنُنصر، ونستسقي بها فنُسقى. فقال : ألا تعطونني منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب عند بيت الله الذي تقد إليه العرب. فأعطوه صنما يقال له «هبل» فقدم به مكة فوضعه عند الكعبة، فكان أول صنم يوضع بمكة» (49).

(47) فيليب حتي : تاريخ العرب (مطول) ك 1 : 108.

(48) المرجع السابق ك 1 : 118 - 124.

(49) تاريخ اليعقوبي 1/257.

ج) أصنام العرب :

من الأصنام التي كانت بالجزيرة العربية :

(1) (هبل) وهي كلمة آرامية معناها بخار أو روح و (هبل أشهر آلهة الكعبة، وكان يمثل على شكل آدمي، وقد وضعت أمامه السهام المقدسة التي كان يستعملها الكاهن في الاستقسام»(50).

(2) بعل : يمثل روح العيون (الينابيع) وإليه أشار سبحانه وتعالى حكاية عن الرسول إلياس : ﴿أَتَذْكُرُونَ بَعْلًا وَّتَذْكُرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ (الصافات : 125). وبعل هو صنم كان لأهل بك من الشام وهو البلد الذي يقال له الآن بعلبك. وقيل البعل : الرب بلغة اليمن(51).

(3) ود : إله القمز، وكان لقبيلة «كلب» بدومة الجندل (52) وقد أشار إليه القرآن قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَا تَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذْكُرُ وَدًا وَلَا سَوْاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ (نوح : 24) هذه الآية أشارت إلى أصنام أخرى بجانب (ود) كانت تعبد في عهد الرسول نوح عليه السلام وهي :

(4) سواع : الذي كان لقبيلة هذيل.

(5) يغوث : كان لمذحج.

(6) يعوق : كان لمراء.

(7) نسر : لحمير (53).

جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن : (سواع كان لقبيلة همذان، و «نسر» لذي الكلاع بأرض حمير و (يغوث) لقبيلة مذبح و (يعوق) لقبيلة همذان (54).

(8) اللات لتقيف بالطائف.

(9) العزى : لقريش وبني كنانة.

(50) اليعقوبي : التاريخ ج 1 ص 254، انظر دائرة المعارف الإسلامية م 2 ص 586.

(51) ناصر الدين البيضاوي : أنوار التنزيل ج 2 ص 144.

(52) ابن هشام : السيرة 22، انظر اليعقوبي : التاريخ ج 1 ص 255.

(53) البيضاوي ج 2 ص 243.

(54) دائرة المعارف الإسلامية م 2 ص 586.

10) مناة : «للأوس والخزرج وغسان» (55) ولهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة.

وقد أشار القرآن إلى هذا بقوله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ (النجم : 21).

وذهب البيضاوي إلى القول بأن «اللات كانت لتثقيف بالطائف أو لقريش بنخلة، وهي صورة لرجل كان يلت السويق بالسمن، ويطعم الحاج، والعزى سمرة لغطافان كانوا يعبدونها، ومناة صخرة كانت لهذيل وخزاعة، أو لتثقيف، وكان العرب يذبحون عندها القرابين، وكانوا يستمطرون الأنواء عندها تبركا بها. أما قوله تعالى : ﴿الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ فهما صفتان للتأكيد» (56).

11) ومن أصنامهم أيضا : «ذو الشرى» في البتراء على شكل كتلة من الحجر ذات زوايا أربع غير منحوتة من الحجر الأسود يبلغ ارتفاعها أربعة أقدام، وعرضها قدمان، وكان لمعظم هذه الآلهة أراض للمراعي مقصورة عليه تسمى الحمى (57) وقد نصب وثنىو مكة (على الصفا صنما يقال له «مجاور الريح» وعلى المروة صنما يقال له «مطعم الطير». فكانت العرب إذا حجت البيت ورأت تلك الاصنام سألت قريشا وخزاعة فيقولون نعبدُها لتقربنا إلى الله زلفى، فلما رأت العرب ذلك اتخذت أصناما (58) قال تعالى مصورا حالتهم تلك : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر : 3).

بهذا يصبح جملة ما أمكن الحصول عليه من أصنام الجاهلية ثلاثة عشرة صنما مشهورة عند العرب في مقدمتها (هبل) كما هناك أصنام أخرى (59).

لكن بالرغم من تعدد هذه الأوثان سواء عن طريق التأثر بالأمم المجاورة لهم كالروم والفرس، أو عن طريق التقرب بها فإن العرب لم يكونوا جميعا يعتبرونها هي الإله الحق سواء في حالة ما يلزم بهم من خطوب فتتوضح في

(55) دائرة المعارف الإسلامية م 2 : 86.

(56) ناصر الدين البيضاوي : أنوار التنزيل ج 2 ص 208.

(57) فيليب حتي : تاريخ العرب (مطول) 1/118.

(58) تاريخ البعقوبي ج 1 ص 257.

(59) محمد الخضر حسين : محمد رسول الله : 30-21

داخل أنفسهم الألوهية الحق عن طريق الفطرة، أو في حالة ثورتهم وغضبهم على هذه الآلهة عندما يلمسون عجزها المائل أمامهم، وهذا ما نلمحه بوضوح في هاتين القصتين :

(أ) «اجتمع أناس بنخلة لإحياء عيد العزى فقال لهم رجل منهم لإخوانه : والله ما قومكم على شيء، وإنهم لفي ضلال فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ومن فوقه يجرى دم النحور، يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذي أنتم عليه(60). ثم تفرقوا، فممنهم من تنصّر، وممنهم من اعتزل الأوثان، وممنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فلباها.

(ب) روي أن امرأ القيس خرج ليثأر من قتلة أبيه، فوقف عند معبد ذي الخلصة/ وهو عبارة عن قطعة من الحجر الأبيض/ (61) ليستقسم بالأزلام فلما خرج سهم النهي ثلاث مرات قذف بالسهم المحطمة في وجه الصنم، وصاح أيها الملعون لو أن أباك الذي قتل لما نهيتني عن طلب الثأر»(62). هذان النصان يوضحان لنا عقيدة الجاهليين في الله وتشوقهم إلى المفهوم الحقيقي للألوهية.

جاء في دائرة المعارف الإسلامية «إن العرب قبل محمد قالوا بوجود إله على نحو ما سموه «الله» أو «الإله» وعبدوه نوعاً من العبادة(63).

بهذا يتضح لنا تصور الجاهليين من أهل مكة - خاصة - للألوهية، ففي قرارة أنفسهم لا يدينون بتلك الآلهة، ولكنهم يتقربون إليها قال تعالى على لسان حالهم : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ (الزمر : 3).

وقد حصر «محمد عاشور» في تعليقه على مادة الله بدائرة المعارف الإسلامية مذاهب العرب في الجاهلية في ثلاثة طوائف :

(1) طائفة تنكر الخالق : وهم الدهريون مستدلاً بقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجاثية : 23).

(2) وطائفة تقول بالخالق، ولكنها تنكر البعث والنشور. قال تعالى : ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ، قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس : 78).

(60) العقاد : عبقرية محمد 2 : 29.

(61) الكلبي : الأصنام : 34.

(62) أبو الفرج الأصبهاني : الأغاني ج 8 : 70.

(63) دائرة المعارف الإسلامية م 2 مادة الله : 558.

3) وطائفه تقول بالخالق وبالدار الآخرة، ولكنها تنكر الرسل وبعث الأجسام. قال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ (الإسراء : 94) بل استنكفوا من اتباع الرسول. قال تعالى :

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ، فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا، وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (التغابن : 6) وواضح أن محمد عاشور قد اعتمد في تقسيمه لهذه الطوائف على الدلالة القرآنية (64). وقد أوضح الله لنا عقيدة الجاهليين في الله في الآيات والسور التالية :

1 - الرعد : 17 ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ ذُوْنِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ، أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ، قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّازُ﴾.

2 - العنكبوت : 63 - 65.

قال تعالى : ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (63).

وقال تعالى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (65).

3 - لقمان : 24 ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

4 - الزمر : 38 ﴿وَلَيْنِ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ

كاشفات ضربه أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون ﴿﴾.

5 - الزخرف : 8 ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

6 - يونس : 22 ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَيْنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

7 - النحل : 53 ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

8 - الأنعام : 151 ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْنَا أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾.

9 - لقمان : 32 ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلِيلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. فكانوا يقولون : إن الله هو الخالق الرزاق إلا أن هذا الاعتراف ينطلق من أفئدتهم، وتنطق به أفواههم عندما يرون عذابا واقعا بهم فيجأرون إلى الله تعالى فإذا ما ذهب عنهم الخوف رجعوا إلى الشرك الذي ألفوه من قبل، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي يَسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَيْبَةً وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَيْنَ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس : 22 - 23).

كما أن أهل مكة يعترفون بالله، ويقسمون به جهد إيمانهم.

(1) الأنعام : 109 ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

- (2) النحل : 36 ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.
- (3) فاطر : 42 ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إْحْدَى الْأُمَمِ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

يقول د . عبد الفتاح أحمد الصاوي «جاءت عقيدة الإيمان بالله في الإسلام توحيدا خالصا بعيدا عن التشبيه الذي اعتقده اليهود والتثليث الذي اعتنقه عبدة الأوثان» (65).

فتصورُ المكَّينَ لله خاصة في السور المكية لم يكن خالصا، بل كان مزيجا من الوثنية والشرك، كما كانت عقيدتهم في الله مضطربة. وما قصه الله عنهم هو من باب المقارنة بين جانب إثبات الألوهية عندهم وبين جانب عدم التنزيه لديهم، وهذا ما أكدّه الدكتور عبد الفتاح أحمد الصاوي بقوله : «وعقيدة الإيمان بالله لها جانبان جانب إثبات، وجانب تنزيه، وقد اتفقت جميع الأديان تقريبا - على جانب الإثبات فما من دين سماوي كان أو غير سماوي إلا وجاء بهذه العقيدة حتى تلك الفلسفات أو النظم التي تدعي الإلحاد، وتذكر الإله إذ تؤمن بالله دون أن تشعر(66) وهذا ما نلمسه بوضوح في عقيدة مشركي مكة الذين يؤمنون بالله لكنهم ما استطاعوا تنزيهه عن التجسيم والمثابة للحوادث، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ (الأنعام : 137).

كما كانوا يتصورون أن الله لم يحرم عليهم قط أن يشركوا به انظر :
- الأنعام : 148 - النحل : 35 -

كما كانوا يقولون بوجود آلهة أخرى تخضع لله، كما اعتبر بعضهم الملائكة وبعض الآلهة بنات لله(67).

الأنعام : 100، النحل : 57، الصافات : 149.

بل كانوا يقولون إن الله لم يحرم عليهم قط أن يشركوا به.

1 - الأنعام 148 . قال تعالى : ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

(65) عبد الفتاح أحمد الصاوي : الوعي الإسلامي ع 257 جمادى 1 : 1406 ص 48.

(66) المرجع السابق : 48.

(67) دائرة المعارف الإسلامية ص 559.

أَشْرَكْنَا وَلَا أَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى
دَاخُوا بِأَسْنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ
أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١﴾.

2 - النحل : 35 قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا
مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، نَحْنُ وَلَا أَبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ
فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾. كما جعلوا بين الله
والجنة نسبا - الصافات 118 الفرقان : 55. فقد أطلق سكان الجزيرة
العربية وخاصة المكيون أسماء ونعوتاً على آلهة لا تضر ولا تنفع (إلا أن
الدين في مكة أيام محمد لم يكن وثنية ساذجة بل كان أشبه بالعقيدة
المسيحية التي جعلت للقسيسين والملائكة أشبه بالعقيدة الله وعباده) (68) كما
كان شأن سكان الجزيرة العربية قبل الإسلام يعبدون الملائكة والجن. قال
تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ هَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا
يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ
بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبا : 41 - 42) فكانت قبيلة بني مليح من خزاعة يعبدون
الجن (69). قال محمد الخضر حسين : (وهم المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿بَلْ
كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبا : 41).

فالعرب قبل الإسلام كانوا يعبدون بعض الأشجار مثل العزى وذات
أنواط كما كانوا يعبدون بعض الحيوانات مثل، ولد الناقة، ويعبدون
الكواكب مثل القمر والمشتري والشعري (70) وهو ما أشار إليه الله تعالى في
كتابه العزيز : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشَّعْرَى﴾ (النجم : 49).

إن عقيدة الجاهليين في الجزيرة العربية في الله كانت خليطاً من الوثنية
والمجوسية والشوق إلى من ينير لهم السبيل في الألوهية الحق، وهذا ما
نلمسه في قوله تعالى : ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ

(68) دائرة المعارف الإسلامية ص 560.

(69) محمد الخضر حسين : محمد رسول الله : 21.

(70) محمد الخضر حسين : محمد رسول الله 18-23.

فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿العنكبوت : 65﴾ وفي قوله تعالى :
 ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ
 هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (الزمر :
 38).

والتقدير الذي يقدره المكيون قبل الإسلام لله باعتباره الخالق المعطي
 الأعظم والواحد الذي يلجأ إليه في وقت الخطر الخاص يستنتج من قوله
 تعالى : ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ، قُلِ الْحَمْدُ
 لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (لقمان : 24).

وفي قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا
 هَذَا لِلَّهِ بِرْغَمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا
 كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (الأنعام : 136).

وفي قوله تعالى : ﴿... حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ طَيْبَةٍ
 وَفَرِحُوا بِهَا، جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا
 أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ
 مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ (يونس
 23).

يقول البيضاوي في تفسيره لهذه الآية : (دعوا الله من غير إشراك لتراجع
 الفطرة وزوال المعارض من شدة الخوف، وهو بدل من ظنوا بدل اشتغال
 لأن دعاءهم من لوازم ظنهم) (71). فالوثنية في شبه الجزيرة العربية قبل
 الإسلام (بدأت كأنها وصلت إلى النقطة التي فشلت فيها، في أن تلتقي مع
 المطالب الروحية للمجتمع الجاهلي، وقد بدأ يقتلعها جمهور من المتذمرين
 الذين تطورت في أذهانهم بعض الآراء الغامضة عن التوحيد، وعرفوا باسم
 الأحناف مثل أمية بن أبي الصلت (ت 624 م) الذي يعتبر عن طريق أمه

(71) ناصر الدين البيضاوي : انوار التنزيل ج 1 ص 238.

ابن خال ثان للرسول ﷺ ، وورقة بن نوفل ابن عم خديجة (72) وهذا مما يؤكد وجود اليهودية والنصرانية بالجزيرة العربية.

يقول اليعقوبي : « دخل قوم من العرب في دين اليهود، فأما من تهود منهم فاليمن بأسرها.... وتهود قوم من الأوس والخزرج. وأما من تنصر من أحياء العرب فقوم من قريش من بني أسد بن عبد العزى منهم عثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وورقة بن نوفل بن أسد.. وممن تزندق حجر بن عمرو الكندي» (73).

ويرى عباس محمود العقاد أن الديانة اليهودية لم تكن خالصة كما أضاف القول بوجود الماجوسية بجانب الأصنام والأوثان والمسيحية وهذا واضح في قوله : «أما في داخل الجزيرة العربية فهناك اليهودية الممتزجة بالتأويلات اللاهوتية وبالفلسفة والنصرانية التي دخلت إليها عن طريق الحبشة الذي خلطوا النصرانية بالوثنية والمجوسية، فنقل الفرس إلى تلك الأصقاع هياكل النار، وعبادة الكواكب، والأكثر من سكان الجزيرة العربية كانوا يعبدون الأوثان والأصنام، ولكنهم مع ذلك كانوا يعرفون الله ويقولون : (إتهم يعبدون الأصنام لتقربهم إلى الله) (74).

(72) فيليب حتي : تاريخ العرب (مطول) ك 1 : 131.

(73) اليعقوبي : التاريخ ج 1 ص 257.

(74) العقاد : الله : 176.

الفصل الثاني

الألوهية في القرآن الكريم

قبل تناول هذا الموضوع بالبيان والدرس يحسن التقديم إليه بأمرين :
أولهما : إدراك الفرق بين الإيمان والعقيدة والتوحيد.

وثانيهما : طرق معرفة الله تعالى :

أولاً : الفرق بين الإيمان والعقيدة والتوحيد

أ - الإيمان : من آمن به؛ صدّقه، ووثق به، والإيمان هو التصديق مطلقاً، فهو نقيض الكفر.

ومجال الإيمان هو ما حدده الرسول ﷺ لما سألته جبرائيل عليه السلام عن الإيمان: «يا محمد ما الإيمان»؟ قال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والقدر خيره وشره.. الحديث)(75) فهذا الحديث يتعلق بأركان الإيمان التي في مقدمتها الإيمان بالله.

وقد أوضح الرسول ﷺ أن الإيمان بالله هو في مقدمة عمل الرسول. قال ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإن قالوها منعوا مني دماءهم وأموالهم، إلا بحقها وحسابهم على الله)(76) فالرسول ﷺ أمره الله بتطهير قلوب المشركين من الشرك وتوجيههم نحو التوحيد الخالص. وهذا الإيمان بالله مقرون بالإيمان بالرسول لأنه ركن من أركان الإيمان في السنة.

قال الرسول ﷺ : (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذَف في النار). فالإيمان يتعلق بالتصديق القلبي بوجود إله واحد، ورسول وملائكة وكتب، وقضاء وقدر، ويوم فيه نحاسب على ما قدمنا، وما أخرنا. فهناك فرق بين الإسلام الذي هو عمل بالجوارح حيث يأتي في الدرجة الثانية وبين الإيمان الذي مركزه

(75) أبو عيسى الترمذي : السنن م 5 كتاب الإيمان : 7 انظر أيضاً صحيح الإمام مسلم.

(76) المصدر السابق م 5 كتاب الإيمان : 3.

(77) الإمام البخاري : الصحيح 1 كتاب الإيمان : 7.

القلب، وهذا بيّن في قوله تعالى : ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات : 14)، فما صدقه القلب وعقد عليه لا يتجاوزهُ، ولا يتزحزح عنه هو مجال الاعتقاد والعقيدة، وأول قواعد الإيمان وأعظمها شهادة أن لا إله إلا الله.

ب. العقيدة

العقيدة في اللغة، جمعها عقائد، وهي ما عقد عليه القلب والضمير. واصطلاحاً ما تدين به الإنسان واعتقده (78).

وعرفها أحمد خليل : «بأنها الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده، سواء أكان هذا الاعتقاد صحيحاً أم باطلاً» (79).

ومن خلال التعريفين السابقين يتبين لنا الفرق بين العقيدة والإيمان، فالإيمان لا يتعلق بباطل أصلاً، أما العقيدة فتتعلق بالاعتقاد الصحيح، كما تتعلق بالباطل، فالجاهليون كانت لهم عقيدة ولكنهم لم يكونوا مؤمنين والأعراب الذين أسلموا، ولم يخلص إيمانهم فإنهم لما ادعوا الإيمان أجابهم الله بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات : 14).

من هنا نستنتج أن الإسلام لا يقر المخطيء في عقيدته على خطئه، بل يوجب عليه أن يطلب الحق لذاته، وهو محاسب إن قصر في طلبه، كما أنه محاسب إذا أدرك الحق ولم يذعن له.

قال تعالى - عائداً على من عرف الحق ولم يتبعه :

﴿قَالُوا بَلْ تَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة : 217).

واعتبر أحمد خليل مقومات العقيدة هي نفس مقومات الإيمان (80) والحق أن الإيمان أخص من العقيدة، لاختصاص الإيمان بالله دون التعلق بما سواه

(78) صالح الداسي : العقيدة بين التحرر والالتزام (مج) الهداية ع 4 س 9 : ص 21.

(79) أحمد خليل (مج) منار الإسلام ع 6 س 8 ص 6 : العقيدة الإسلامية وأثرها في تحقيق النصر.

(80) أحمد خليل : منار الإسلام ع 6 س 8 ص 7 و 8 (العقيدة وأثرها في تحقيق النصر).

يقول العقاد : «الفكرة الألوهية في الإسلام فكرة تامة، لا يتغلب فيها جانب على جانب، ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة، ولا تجد لله مثيلاً له في الحس ولا في الضمير» (81).

فالعقيدة الإسلامية لا تجافي الإيمان ولا تنأى عنه، وإنما تستضيء بنوره، وتتلاقى معه في المعبود الواحد الذي ليس كمثلته شيء، فإذا ما تساوقت العقيدة مع الإيمان، وتكاملت معه في القلب، استقام السلوك وحسن الإسلام.

يقول الدكتور عبد الله الأوصيف في كتابه «بحوث في الدراسات القرآنية والاجتماعية» : فكلما حضرت العقيدة الإسلامية في قلب المسلم، وصاحبت السلوك حصل رقي بالنسبة للفرد والمجتمع، وتقدم إلى الأمام، وكلما ضعفت العقيدة وخفت أثرها (82) وساءت تطبيقاتها (83)، خارت العزائم، وتلاشت الهمم (84) فإن العقيدة «ذات أثر خلقي ونتيجة سلوكية» (85).

ج - التوحيد :

تعريفه : هو العلم الذي يبحث فيه عن العقائد الدينية المكتسبة من الأدلة اليقينية (86) أو هو «إثبات العقائد الدينية بأدلتها اليقينية» (87). وعرف سعد الدين التفتازاني التوحيد بأنه (العلم بالعقائد الدينية المكتسبة عن الأدلة اليقينية) (88).

وعرفه عبد الرحمن بن خلدون (بأنه علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة) (89).

81 (عباس محمود العقاد : اش 176 ، 177).

82 (يشير بذلك إلى أن الإيمان يزيد وينقص).

83 (يشير بذلك إلى أثر العقيدة على الإسلام الذي هو عمل بالجوارح).

84 (صفحة 57).

85 (النشرة العلمية للكلية الزيتونية ع 1 س 1 (1391 - 1971) محمد الفاضل ابن عاشور : روح

الحضارة الإسلامية : 40).

86 (إبراهيم المراغني : بغية المريد لجوهرة التوحيد : 4 ط 1 ، 1979 بتونس).

87 (من مخاضرة لحمد الفاضل ابن عاشور (خطية) في تاريخ الأديان 67/11/15).

88 (سعد الدين التفتازاني : المقاصد 47/2).

89 (عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة 365 ، 366).

ويعتبر علم التوحيد هو وليد الثقافة الإسلامية لتعلقه بذات الله وصفاته وذات رسله.

يقول الشيخ إبراهيم المراغني: «وموضوع علم التوحيد، ذات الله من حيث ما يجب له، وما يستحيل، وما يجوز، وذات الرسل كذلك، والممكن من حيث يتوصل به إلى وجود صانعه، والسمعيات من حيث استفادتها، وثمرته معرفة الله بالأدلة القطعية» (90) فالتوحيد (أول شيء دعا إليه الرسل) (91) لهذا فإن علم التوحيد يختلف عن علم العقائد، باعتبار أن علم العقائد يتناول العقيدة الإسلامية والعقائد الباطلة، أما علم التوحيد فلا يتعلق إلا بذات الله وصفاته ورسله، كما أن علم التوحيد يأتي البحث فيه بعد الإيمان والتصديق بذات الله وصفاته ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر خيره وشره. فالكلام في علم التوحيد هو من باب البحث في الأدلة العقلية والنقلية ومن هنا أطلقت تسميته على علم العقائد، لاعتمادها الأدلة العقلية. قال الشيخ إبراهيم المراغني: «ويسمى أيضا علم العقائد، وعلم أصول الدين» (92).

هذا وإن علم العقائد هو مسلك من مسالك علم الكلام، يقول الشيخ محمد الفاضل ابن عاشور في إحدى محاضراته: «إن علم الكلام يسلك مسالك ثلاثة:

1) مسلك تقرير العقيدة، وهذا ما نجد الكلام عنه في العقائد النسفية للنسفي.

2) مسلك يبين الخلاف بين أصحاب الملل والنحل، وهذا ما نجده في كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني.

3) مسلك المعرفة الحكمية، وهو ما نجده في كتاب «البيروني» «تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة» (93).

يقول «فيليب حنّي»: «والحق يقال: إن أكثر من تسعين في المائة من

(90) إبراهيم المراغني: بغية المريد لجوهر التوحيد: 4.

(91) محمد أحمد العدوي: دعوة الرسول إلى الله تعالى: 3 (المقدمة).

(92) إبراهيم المراغني: بغية المريد: 4.

(93) محمد الفاضل ابن عاشور: من محاضرة خطية له تتعلق بعلم تاريخ الأديان. (المحاضرة الأولى

67/11/15).

العقيدة الإسلامية يدور حول الله، فالله هو الواحد الحق» (94) فعلم التوحيد والصفات مرادف في الأصل لعلم الكلام، وعلم الكلام أساس قواعد الإسلام (95).

د - مناقشة برهان الخلق وبرهان الغاية وبرهان أهل الصناعة

I - برهان الخلق : ويعرف في اللغات الأوروبية باسم البرهان الكوني، وخلاصته أن الموجودات لا بد لها من موجد؛ لأننا نرى كل موجود منها يتوقف على غيره، ونرى غيره هذا يتوقف على موجد آخر دون أن نعرف ضرورة توجب وجوده لذاته... فإذا كانت الموجودات غير واجبة لذاتها فلا بد لها من سبب يوجبها، ولا يتوقف وجوده على وجود سبب سواء. ويسمى هذا البرهان ببرهان المحرك الذي لا يتحرك (96).

قال العقاد : «وخلاصة الرأي في برهان الخلق المتمثل في أن الحياة والعقل من عمل حي عاقل قضية عقلية لا غبار عليها، وأن المادة هي مصدر كل شيء في الكون، يُلجئنا هذا إلى فروض لا يقرها الحس ولا المنطق ولا توافق القسطاس الذي جعله الماديون مرجعا لجميع الآراء والأحكام، هو قسطاس المشاهدة والدليل المحسوس» (97).

II - برهان الغاية : وهو في لبابه نمط موسع من برهان الخلق مع تصرف فيه وزيادة.

وهو يتخذ من المخلوقات دليلا على وجود الخالق، ويزيد على ذلك أن هذه المخلوقات تدل على قصد تكوينها وحكمة في تسييرها وتديرها.

إلا أن بعض الإلهيين قد أنكروا أن يحيط العقل البشري بحكم الله، وأن تكون لله جل وعلا غايات تناط بالأحياء والمخلوقات (98).

III - برهان أهل الصناعة :

وهو برهان الاستعلاء والاستكمال أو برهان المثل الأعلى.

(94) فيليب حتي : تاريخ العرب (مطول) 25 ص 158.

(95) دائرة المعارف الإسلامية 5/528.

(96) عباس محمود العقاد : الله : 234.

(97) عباد محمد العقاد : الله : 234.

(98) د - د - د : 240.

(98) د - د - د : 240.

وفحواه أن العقل الإنساني كلما تصور شيئاً عظيماً تصور ما هو أعظم منه، فما من شيء كامل إلا والعقل الإنساني متطلع إلى أكمل منه، ثم أكمل منه إلى نهاية النهايات، وهي غاية الكمال المطلق التي لا مزيد عليها ولا نقص فيها(99). وهذا الموجود الكامل لا مزيد على كماله موجود لا محالة لأن وجوده في التصور أقل من وجوده في الحقيقة، فهو في الحقيقة موجود لأن الكمال المطلق ينتفي عنه سبب عدم وجوده، ولا يبقى له شيء في الكمال، بل نقص مطلق هو عدم الوجود.

يقول العقاد «فمجرد تصور هذا الكمال مثبت لوجوده»(100) فالله ثابت الوجود لأنه هو غاية الكمال.

ثانياً : طرق معرفة الله تعالى :

هناك ثلاثة طرق لمعرفة الله وهي :

أ - النص القرآني :

قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (الإخلاص : 1).

وقال : ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أََمْْواتًا، فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ، ثُمَّ إِنَّهُ تُرْجَعُونَ﴾ (القرة : 28).

وقال أيضاً : ﴿وَاللَّهُمَّ إِلَهَ وَاحِدَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة : 165).

وقال أيضاً : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ، قَانِماً بِالْقِسْطِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران : 18).

فالدليل القرآني هو أصح الأدلة النقلية على الإطلاق في إثبات الألوهية الحق، وتنزيه الله.

ب - طريق العقل :

يقول الدكتور أحمد بكير «هناك من الفلاسفة من يرى ضرورة واجب الوجود لإدارة الكون بعد خلقه خلقاً محكماً، وجوباً بالوجود ذلك، فلا

(99) العقاد : الله ص 247.

(100) ، ، ص 247.

يجوز أن يكون غيره، وإلا للزم الدور والتسلسل المستحيلان، وعلى هذا الرأي أبو نصر الفارابي⁽¹⁰¹⁾. فالقرآن دعا إلى إعمال العقل في كثير من الآيات : «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ» (الفرقان : 47) «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ» (الغاشية : 17).

ج - طريق القلب أو الذوق والوجدان :

سماه الدكتور أحمد بكير طريق الإشراق. يقول الإمام الغزالي في كتابه «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» : فإذا عرفت كيف تتفاوت الخلق في بحار معرفة الله، وأن ذلك لا نهاية له، وعرفت أن من قال لا يعرف الله إلا الله فقد صدق، ومن قال لا أعرف إلا الله فقد صدق⁽¹⁰²⁾ مستدلاً بقوله تعالى : «وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» (الأنفال : 17). فهو صادق لأن الرامي باعتبارين؛ هو منسوب إلى العبد بأحدهما، ومنسوب إلى الرب بالثاني، فلا تناقض⁽¹⁰³⁾. فالمتصوفة لهم إدراك لله يختلف عن العقل، ويتجاوز ظاهر اللفظ إلى باطنه دون أن يناقضه، وخاصة المتصوفة من أهل السنة.

يقول الدكتور أحمد بكير : «لكن نظرية الإشراق عند الصوفية المعتدلين ليست مركبة من قانون ذي مقدمات ونتائج كما يعرف عند الفلاسفة، وأهل الرأي في التأمل. أو هي ليست الطريقة المنطقية في إثبات واجب الوجود، بل هي نور يقذفه الله في قلب العبد، ويحصل هذا بعد تجريد النفس من العوارض الشهوانية وإقبالها على المطلوب»⁽¹⁰⁴⁾ أي على الله، مستدلين في ذلك بقوله تعالى : «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» (العنكبوت : 69).

يتضح من خلال ما تقدم وجود ثلاثة مناهج تؤدي إلى معرفة الله إلا أنه لم يكن كل الناس على قدر واحد من القدرة العقلية مثل النخبة من الفلاسفة «ولذا لا يمكن الاعتماد على العقل في الإلهيات»⁽¹⁰⁵⁾. كما أنهم لم يسلكوا جميعاً منهج مجاهدة النفس، فلم يبق إلا الدليل القرآني الذي فيه السلامة من مغبة الوقوع في عدم الإدراك.

(101) أحمد بكير : الله : النشرة العلمية للكلية الزيتونية ع 1 ج 1 ص 55.

(102) أبو حامد الغزالي : المقصد الأسنى شرح أسماء الله الحسنى : 26.

(103) المصدر نفسه ص 27.

(104) أحمد بكير : الله. النشرة العلمية للكلية الزيتونية ع 1 س 1 : 64 ، 65.

(105) نفس المصدر ع 1 س 1 : 67.

الفصل الثالث

منهج الرسل في الدعوة إلى الله تعالى :

(1) منهج إبراهيم عليه السلام في الاستدلال على وجود الله

أ - التعريف بإبراهيم عليه السلام.

هو إبراهيم بن تارح (107) بن ناصور بن ساروغ بن إرعو بن فالغ بن عابر بن شالخ ابن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام (108). ولد في قرية من قرى الكوفة من بلاد العراق تسمى بكوثا، وكان أبوه من أهلها، وكانت أمه أختا لأم لوط عليه السلام. تزوج سارة وهاجر، عاش 175 سنة. كان من أولي العزم من الرسل.

ب - عصره :

طغى فيه التنجيم وعبادة الأصنام والكواكب والنجوم، عاصر الملك نمرود بن كنعان، وكان والده صاحب مكانة عند نمرود الجبار. ولما رأى قومه منذ صغره يعبدون الأوثان أنكر ذلك، ثم تأمل الظواهر الطبيعية من نجوم وقمر وشمس، فلما رآها تغيب تنحى وعبد محرکہا وخالقها.

ج - السور والآيات التي فيها دعوة إبراهيم إلى الله :

1 - البقرة : 258 ، 260.

2 - الأنعام : 74 ، 83.

3 - النحل : 120 ، 123.

4 - مريم : 41 - 58 .

5 - الأنبياء : 52 ، 73.

6 - الشعراء : 69 ، 89.

(106) ساقطصر على منهج إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام.

(107) تارح : آزر كما ورد في القرآن : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ﴾ (الأنعام : 74).

(108) عبد المصاحب الحسين العاملي : الأنبياء حياتهم قصصهم : 115 (نقلا عن مروج الذهب للمسعودي).

7 - العنكبوت : 16 ، 27.

8 - الصافات : 83 ، 113.

9 - الزخرف : 26 ، 28.

10 - الذاريات : 24 ، 37.

والسورة الأخيرة تمثل خاتمة الكفر الماثلة في هلاك قوم إبراهيم بعذاب واقع.

د - دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه

قال تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتُخَذَ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونُ مِنَ الْمُوقِنِينَ، فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي، فَلَمَّا أَفَلَ (109) قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسُ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجْهَتْ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ (110) السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا (111) وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ، قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يَنْزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿ (الأنعام : 76 - 82).

يقول خالد محمد خالد «ولو شاء الله لبداه الوحي، لكنه تركه يبيح ويتأمل... إلى أن يقول : هذا أبو الأنبياء يسلك إلى الله طريق العقل والنظر، والتأمل مقلبا وجهه في السماء ممعنا بحواسه في اجتلاء الغيب متوسلا في

(109) أفَلَ : غاب.

(110) فطر : خلق.

(111) حنيفا : مائلا إلى الدين القيم.

نطاق نسبي بنفس الطريقة التي يسلكها العلم اليوم، وهي وضع الفروض ثم مناقشتها وفحصها» (112).

فهناك تكامل مع ما ورد في سورة الصافات قال تعالى :

﴿وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ إِذْ قَالَ لَأَيُّبِهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ أَنْفَكَا آلِهَتَهُ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ. قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ، وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (الصافات : 83 - 97).

ولما اشتد الصراع بين الألوهية الحق وبين الوثنية الباطلة : تأمر أتباع الوثنية على إبراهيم عليه السلام بإلقائه في النار، قال تعالى على لسانهم :

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأُسْفَلِينَ، وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الصافات : 99).

فخرج إبراهيم من العراق إلى الشام، وفعلا كان النصر حليفه بأن أمر الله النار بعدم إحراقه.

قال تعالى : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ فَلَمَّا يَأْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء : 68 - 70).

يقول خالد محمد خالد : «والقرآن إذ يُفِيضُ في تبيان هذا النبأ إنما يعرض قصة الإيمان بالله وبوحدانيته في نقطة بدتها وانطلاقها في فجرها البعيد حيث كان ثمت مؤمن واحد وسط أقوام مشركين وثنيين» (113).

فهذا الموقف الإبراهيمي في هداية قومه إلى الإله الحق، وفي توحيده لربه هو الذي جعله بحق جد الأنبياء.

(112) خالد محمد خالد : الرسايا العشر : الوصية التاسعة : 234.

(113) خالد محمد خالد : كما تحدث القرآن : 140.

قال تعالى : ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الصافات : 110).

وقال تعالى : ﴿قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، دِينًا قَبِيماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : 162 - 163).

كما أوحى الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم. قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل : 123).

فالذي يستخلص من هذا المنهج الحنيفي :

(1) أن إبراهيم عليه السلام دعا أقرب المقربين إليه؛ والده أزر لنبذ الأصنام والتخلي عن صناعتها والإيمان بالمعبود الحق.

(2) أن إبراهيم عليه السلام كان منذ البداية قبل الحوار مع أبيه ومع قومه مؤمناً بوحداية الله عن طريق الاصطفاء الإلهي لأنه نبي ورسول.

(3) انتقل بقومه من التجسيد إلى التجريد ومن الملموس إلى المشاهد المرئي لكي يوجه أنظارهم إلى الخالق والمسير.

(4) أراد أن يبين لقومه عن طريق التمثيل الذاتي والتدرج بهم من المحسوس والتصور العقلي إلى الإيمان بالله، فكان بانتهاجه هذا المسلك مع قومه متخذاً برهان الغاية للتدليل على الخالق «إلا أن برهان دليل الغاية الذي يتخذ من المخلوقات دليلاً على وجود الخالق، منتقص، لأن العقل البشري لا يستطيع أن يحيط بجميع حكمة الله مما خلق» (114)، فلم يبق إلا الإيمان بالقلب والتسليم للنص.

(5) ومما يستنتج أيضاً أن المؤمن الذي يريد هداية غيره عليه أن يخاطب من لم يكن مؤمناً إيمانه، بما هو معلوم حتى يخرج به من الوثنية إلى التوحيد. هذا وإن دعوة الكافر تكون بمخاطبة الحواس الظاهرة ومخاطبة ملكة العقل فيه وتوجيه أنظاره لما هو محسوس قصد الانتقال به من وراء ذلك إلى ما هو مجرد، وذلك بإدراك الخالق والموجد والمتصرف فيها بالتغير والأقول.

(6) ولما حابه قومه خاطب فيهم الجانب النفسي عساهم يؤمنون، فذكرهم بأنهم لا يعيشون في أمن فيما يعتقدون لأن آلهتهم لا قدرة لها على حماية نفسها وهذا واضح في تحطيمه الأصنام عندما ذهب قومه ليوم الزينة : **﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾** ، **﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾** ، **﴿قَالُوا : أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾** ، **﴿قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾** (الأنبياء : 59 - 64).

فإبراهيم أبان لقومه أن هذه الآلهة لا قدرة لها حتى على الدفاع عن نفسها، كما وجه أنظارهم إلى مخاطبة نفوسهم : **﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾** ، **﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾** . وهنا قمة الصراع الداخلي بين العبادة الموروثة وبين العبادة الجديدة السليمة : **﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾** ، **﴿أَفْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾** ، **﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** (الأنبياء : 64 - 68) فقوم إبراهيم عليه السلام يعلمون أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تنفع، كما أدركوا إدراكا نفسيا أنهم ظالمون لأنفسهم بالشرك والكفر ورغم هذا الإدراك ما أسلموا وجوههم إلى الله الحق، بل اعجببتهم كثرتهم أمام فرد يدعوهم إلى الهدى فقرروا إحراقه بنار تخلصا منه.

قال تعالى واصفا حالتهم تلك : **﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾** (الأنبياء : 69) وهنا منتهى استبداد الطغيان والكفر بنفوسهم وتملك التقليد والاتباع الأمر الذي أعمى بصيرتهم وأضعف عقولهم : **﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** فهم بدل أن تنصرهم آلهتهم كما كانوا يحسبون انقلبوا على رؤوسهم مدافعين عنها ومنتصرين لها.

وهذا يدعونا إلى المزيد من الوقوف أمام دعوة إبراهيم لأبيه ومع ملك بابل.

هـ - دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه :

قال تعالى : **﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي**

عَنْكَ شَيْئًا، يَا أَبْتَ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا، يَا أَبْتَ لَا تَغْبِدِ الشَّيْطَانُ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا، يَا أَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا. قَالَ: أَرَأَيْبَ أَنْتَ عَنِ إِلَهِي يَا إِبْرَاهِيمُ؟ لَنْ يَنْتَهِيَ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا، قَالَ: سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا وَأَعْتَرْتُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿ (مريم : 43 - 49)

فإبراهيم عليه السلام في هذه الآية دعا والده وهو أقرب الناس إليه إلى اتباع الإله الحق، وهنا ندرك أن الدعوة إلى الله تبدأ مع الأقربين، فهم أولى بالمعروف حتى يحصل الاقتداء والاتباع، وقد كرر إبراهيم عليه السلام النداء لوالده أربع مرات، وفي تكرار النداء شدة الحرص على الهداية والتحذير من سوء العاقبة، ولكن والده أصر على عبادة الأصنام، واعتز بعبادته لها، بل هدده بالرجم، وأمره بمفارقتة وهجرانه بعيدا عنه، والانسان مطالب بالإحسان إلى الوالدين، ومن جملة الإحسان هدايتهما إلى طريق الصواب وعبادة الإله الحق، فلإن أبيا ذلك، ثبت هو على عبادته وتوحيده؛ فلا طاعة لمخلوق في الشك أو الكفر مهما قرب.

قال تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (العنكبوت : 8).

قال الزمخشري في الكشاف : (حسننا أي فعلا ذا حُسن، أو ما هو في ذاته حسن بفرط حسنه)(115).

وفسر الإمام محمد الطاهر ابن عاشور (جاهداك) : (بمعنى شدة السعي والإلحاح فإذا ألحَّا، وبألغا في دعوتك إلى الإشراك بي، فلا تطعهما. وهذا تأكيد للنهي عن الإصغاء إليهما إذا دعوا إلى الإشراك)(116).

وقال تعالى مؤكدا الأمر بحسن معاملة الوالدين سوى الشرك: ﴿وَإِنْ

(115) الزمخشري : ألكشاف ج 3 ص 248.

(116) ابن عاشور : التحرير والتوير ج 21 ص 160.

جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطْعَمُهُمَا وَصَاحِبُهُمَا
فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان : 15)

وقد فسر الجلالان : جلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي، في
تفسيريهما (ما ليس لك به علم) أي موافقة للواقع (وصاحبهما في الدنيا
معروفا) بالبر والصلة» (117).

(و) دعوة إبراهيم ملك بابل إلى الإله الحق

هو نمروذ بن كنعان، وكان المُلْكُ قد بطر به، فران على قلبه، فادعى أنه
المحيي والمميت.

قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُخَيِّئُ وَأُمِيتُ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ
فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة : 259).

فإبراهيم عليه السلام اتبع في إبطال الآلهة الباطلة طريق استخدام الجانب
الحسي، والجانب النقلي، والجانب العقلي، مستدرجا والده وقومه وملك بابل
عن طريق الحوار المتبوع بالحجاج، وحقا فقد أحدث في قومه ارتجاجا
واهتزازا، إلا أن استبداد التقليد بهم أحدث فيهم ارتدادا فتآمروا عليه
لإحراقه. وهنا تدخل الإله الحق بالمعجزة، فأبطل إحراق النار.

﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمْ
الْأَخْسَرِينَ﴾ (إبراهيم : 70-71).

فالإله الحق ينصر رسله؛ قال تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (غافر : 51).

قد كان إبراهيم عليه السلام يسعى في إقناع قومه بأن هذه الأصنام لا
تنفع ولا تضر موجها إليهم أسئلة استنكارية.

(117) الجلالان : التفسير 544.

قال تعالى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَافِيَةً قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ؟ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيَنِي وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِيَنِي وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَنْجِنِي بِالْصَّالِحِينَ﴾ (الشعراء : 71 - 84).

لذا فإن حرية التعبير لا يملكها إلا حر الإرادة، وإن الحريتين تصنعان معا هذا المنهاج الذي يسقط فيه الملوك والكهنة والأصنام، كما أن هاتين الحريتين لا تتشآن لفائدتهما إلا حيث لا يوجد مناخ الملوك والكهنة والأصنام وعند وضوح هذه المسلمات لإبراهيم قرر الهجرة إلى الله...» (118) فالإله الحق هو الخالق والهادي إلى الصراط المستقيم، وهو الرازق الذي بيده الشفاء والمرض والموت والحياة، وهو المنفرد أيضا بالمغفرة والثواب. تلك هي نتيجة الصراع بين الحق والباطل، والخصائص المميزة للإله الذي جاء إبراهيم عليه السلام يدعو إليه، وينزعه عن الشبيه والمثيل، فكان إبراهيم في دعوته (أمة).

قال تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (النحل : 120).

لكن إن كان الله قد حمى إبراهيم من نار قومه فخرج بعد ذلك من العراق (119) مهاجرا إلى بلاد الشام (120) فماذا حل بقومه؟

قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ، فَرَأَى إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ

(118) منبر الإسلام ع 12 س 36 ص 29 (هجرة إبراهيم من أجل السلام) بقلم التحرير.

(119) منبر الإسلام : 28 التحرير ع 12 س 36 . ذو الحجة 1398 نوفمبر 1978.

(120) عبد الصاحب الحسني العاملي : الأنبياء حياتهم قصصهم : 128.

وَبَشَرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ، فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ، قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ، قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ، لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ، مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿الذاريات : 25 - 38﴾.

فنهاية الكفر والإعراض عن سبيل الله بعد الرسل هي الهلاك في الدنيا والعذاب المقيم في الآخرة.

وخلاصة منهج إبراهيم في الاستدلال على وجود الله تتمثل في :

أ - أنه اتبع دليل الغاية الذي يقوم على استخدام الظواهر الكونية ولفظ النظر إليها كعلامات دالة على الخالق والموجود والمسير.
ب - أنه خاطب أقرب الناس إليه (والده آزر) وقومه، والملك الحاكم (نمرود بن كنعان).

ج - أنه استخدم الحوار مع قومه القائم على :

1 - اعتماد ملكات الحس : ﴿فَعَلَهُ كَيْبَرُهُمْ هَذَا، فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ (الأنبياء : 63).

2 - توجيه العقل عن طريق الاستدلال ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء : 67).

3 - مخاطبة النفس لإبعادها عن الاقتداء إلى ذلك الاهتداء.

4 - إن الأصنام والأوثان لا تنطق ولا تحس ولا تدافع حتى عن نفسها لمّا كسرها.

د - فلإله إبراهيم هو الإله الحق.

(1) يحيى ويميت.

(2) يخلق، يطعم، يسقي ويشفي.

(3) يغفر الذنوب، يحاسب ويعاقب.

وفي ذلك إشارة إلى ظواهر ثلاث :

1 - ظاهرة الخلق.

2 - ظاهرة التفسير.

3 - ظاهرة الإيمان بالبعث وما فيه من حساب.

لكن كيف يفسر طلب إبراهيم عليه السلام من ربه كيف يحيي الموتى؟
قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ
تُؤْمِنُ قَالَ بَلَى، وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ
فَصُرْهُنَّ إِنَّكَ تَمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا
وَأَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة : 260).

الجواب : أن سؤاله لا يتعلق بمعرفة الله وإنما بمعرفة إحياء الموتى.
قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: «فإن إبراهيم لفرط محبته الوصول
إلى مرتبة المعاينة في دليل البعث رام الانتقال من العلم الفطري البرهاني إلى
العلم الضروري، فسأل الله أن يريه إحياء الموتى بالمحسوس» (121) .

(2) منهج موسى عليه السلام في الدعوة إلى الله تعالى :

(أ) اسمه ونسبه :

موسى بن عمران بن وهيب بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم
عليهم السلام.

اسم أمه : يوخابيد، وقيل اسمها افاصية.

ولد موسى بن عمران في مصر زمن فرعون، وهو الرابع من فراعنة
مصر.

ويسمى الوليد بن مصعب بن معاوية بن أبي نمير بن الهلواس بن ليث
بن هران ابن عمر بن عملاق (122).

(ب) السور والآيات التي ذكر فيها موسى عليه السلام

ذكر موسى في القرآن حوالي 138 مرة (123) خلافا لما ذكره محمد
إسماعيل إبراهيم في كتابه معجم الألفاظ والأعلام القرآنية من أنه ذكر 136

(121) محمد الطاهر ابن عاشور : التحرير والتنوير 38/3.

(122) عبد الصاحب الحسين العاملي : الأنبياء حياتهم، قصصهم : 254.

(123) محمد زكي صالح : الترتيب والبيان 2/97.66.

مرة(124). أما السور التي ذكر فيها فهي (34) سورة ابتداء من البقرة وانتهاء بسورة الأعلى وهي :

- (1) البقرة : 51 - 248.
- (2) آل عمران : 84.
- (3) النساء : 153 - 164.
- (4) المائدة : 20 - 24.
- (5) الأنعام 84 - 154.
- (6) الأعراف : 103 - 160.
- (7) يونس : 75 - 88.
- (8) هود : 17 - 110.
- (9) إبراهيم : 5 - 8.
- (10) الإسراء : 2 - 101.
- (11) الكهف : 60 - 66.
- (12) مريم : 51 .
- (13) طه : 9 - 91 (أخذه الرسالة وحياته).
- (14) الأنبياء : 48.
- (15) الحج : 44 .
- (16) المؤمنون : 45 - 49.
- (17) الفرقان : 35.
- (18) الشعراء : 10 - 68 (حواره مع فرعون).
- (19) النمل : 7 - 10.
- (20) القصص : 3 - 76 (زواجه).
- (21) العنكبوت : 39.
- (22) السجدة : 33 .
- (23) الأحزاب : 7 - 69.

(124) محمد إسماعيل إبراهيم : معجم الالفاظ والاعلام القرآنية 2/215.

- (24) الصافات : 114 - 120.
- (25) غافر : 23 - 53 (مؤمن آل فرعون).
- (26) فصلت : 45.
- (27) الشورى : 13.
- (28) الزخرف : 46 - 56 (نهاية قوم فرعون).
- (29) الأحقاف : 12.
- (30) الذاريات : 38 .
- (31) النجم : 36 .
- (32) الصف : 5.
- (33) النازعات : 15 (عاقبة فرعون).
- (34) الأعلى : 19 (125).
- ففي مقابل دعوة إبراهيم لنمرود بن كنعان : نجد الدعوة عند رسول الله موسى عليه السلام إلى فرعون الآدمي الذي ادعى الربوبية، فهنا نلاحظ الشرك انتقل من الجماد إلى الإنسان المتأله.
- ورد في مجلة منبر الإسلام: «وجاء من بعده من ذريته موسى، فخرج بقومه في محاولة لتحريرهم من قهر فرعون، واستعادتهم إلى عبادة الله، والتفكر في الآيات بدلا من عبادة العجل والسجود للذهب» (126).
- فالإسرائيليون عبدوا العجل، واتبعوا السامري.
- قال تعالى : ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ (طه : 85).
- وقال تعالى مخاطبا موسى عليه السلام : ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه 14 - 15).
- (ج) ذهب موسى واخيه إلى فرعون :
- أمرهما الله بالذهاب إلى فرعون.

(125) محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : 680 - 682.

(126) منبر الإسلام ع 12 س 36 ذو الحجة 1398، نوفمبر 1978. التحرير : 29.

قال تعالى : ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي، وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي، أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى، فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى، قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ : لَا تَخَافَا، إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ (طه : 43 - 47).

وهنا يأتي الصراع بين المفهوم الحق للالهوية وبين المفهوم الخاطيء، وهو نفس الحجاج الذي تم من قبل بين إبراهيم عليه السلام وملك بابل، إلا أنه هنا يدور بين موسى وفرعون.

قال تعالى واصفا لنا هذا المشهد بأسلوب أسر ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ؟ قَالَ: رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ. قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ. قَالَ : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ. قَالَ لَنْبِي اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَكَ مِنْ الْمُسْجُوتِينَ (الشعراء : 23 - 29).

فما يمكن إدراكه من هذا الحوار هو الصراع الواضح بين الكفر والإيمان، بين من اتخذ نفسه إلها من دون الله، وبين من جاءه يدعوه إلى الإله الحق، كما يتضح أيضا إصرار فرعون على غوايته وشركه، الأمر الذي دفع به إلى تهديد من جاءه هاديا بوضعه في السجن، إن لم يتخذه إلها، وأصر على هدايته للإله الحق.

(د) الصراع بين الحق والباطل :

يتواصل الصراع بين موسى وفرعون متمثلا في المقابلة الفاصلة بين من اتخذوا فرعون إلها من دون الله، وبين موسى وأخيه.

قال تعالى : ﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ، فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ، فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ أَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنِ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْبِرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمْ

السَّخَرِ فَلَسَوْفَ تَغْلِبُونَ لِأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ، قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ إِنَّا نَظْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (الشعراء : 44 - 53).

في هذا اللقاء تمت الغلبة للالوهية الحق على الالوهية الباطلة، فتم نزع الشرك من قلوب المشركين وغرس الإيمان بالإله الحق المحيي والمميت، وهذا ماثل في قول من انقلب من الشرك إلى الإيمان الحق ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾.

(هـ) خاتمة الكفر والإعراض عن الإيمان.

قال تعالى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى فَكَذَّبَ وَعَصَى، ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى فَخَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ (النازعات : 15 - 26).

قال ابن عباس ومجاهد : (وهذه الكلمة ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ قالها فرعون بعد قوله : ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ (القصص : 38) بأربعين سنة» (127).

يقول الدكتور التهامي نقرة : «ولذا كانت شخصية الإنسان تتميز على حسب العواطف التي تدور عليها حياته وخاصة السائدة منها، فإن لكل من موسى وفرعون عاطفة سائدة تسيطر على ما لديهما من عواطف أخرى، وتوجه سلوكهما. وهي في موسى : حب الله والإخلاص له في السر والعلانية...»

وهي في فرعون: حب الذات الذي يسيطر فيه الزهو والغرور على النفس...» (128).

فالإيمان بالله يحدث في النفس مخافة الخالق، فتبتعد عن الهوى، وتنقلب

(127) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم 4/468.

(128) التهامي-نقرة : سيكولوجية القصة في القرآن 372.

من نفس أمارة إلى نفس لوامة، تقود صاحبها إلى العمل بأمر الله لأن الانتهاء إلى الله دون سواه هو فرار إليه بصدق.

يقول خالد محمد خالد: «إن الإيمان بالله في حقيقته يمثل أسمى آفاق التفكير الإنساني وأشهر حوافز التقدم والانطلاق» (129).

ولكن اليهود بعد موسى عليه السلام «عبدوا بعلًا، وزعموا أنه ابن الله، وشبهوا الله تعالى بالإنسان، فنعتوه بأنه تعب من خلق السماوات والأرض فاستراح يوم السبت» (130).

(3) الزاوية من خلال دعوة المسيح عليه السلام

(أ) عصره : كان الزمن الذي ظهر فيه المسيح عليه السلام يشتمل على طوائف يهودية متعددة وهي (طوائف الصدوقيين والفريسيين، والآسين والغلاة والسامريين) (131) كما طغى على عصره علم الطب، وكان هناك صراع بين هذه الطوائف، فلما ولد المسيح عليه السلام كانوا ينقسمون إلى فريقين : فريق يتبع الحكيم «هلل» الذي قدم من بابل إلى فلسطين، وفريق يتبع الحكيم (شمائي) وهو يميل إلى التضيق في الديانة على اليهود وحدهم (132).

(ب) ولادته : ولد من غير أب، أمه مريم البتول بنت عمران بن ماثان يتصل نسبه الشريف بسليمان عليه السلام، وعيسى اسم أعجمي غير منصرف للعجمة والعلمية (133) تمنى جدته للام (حنة) أن تهب ما في بطنها خادما لبית المقدس، فلما ولدت مريم قال الله على لسان حالها : ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ۚ اعْبُدْهَا بِكَ وَذَرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ

(129) خالد محمد خالد : الوصايا العشر 256.

(130) محمد عبد العظيم الزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن 2/ 344.

(131) العقاد : حياة المسيح م 1 : 574.

(132) العقاد : حياة المسيح م 1 : 578.

(133) الفيروز ابادي : بصائر ذوي التمييز ج 6 ص 111.

الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَاءُ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَاءُ الْمِخْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿آل عمران : 34 - 37﴾.

ولد في السنة الأولى للميلاد، وجرى العمل به في أوروبا في سنة 532 للميلاد بدعوة من الراهب دينوسيوس الصغير Exigus.

ولادة المسيح كانت من غير اتصال جنسي بين ذكر وأنثى، وهو ما حكاه القرآن الكريم :

﴿وَإِذْ نَادَىٰ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمُ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بِبَغِيًّا، قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (مريم 15 - 21)﴾.

(ج) تلقيه الرسالة : (اصطفاه الله بالرسالة صبيًا)

قال تعالى : ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ (134) بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا، فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا، فَوَدَّعَ مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (135) وَهَزَيْ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا، فَإِمَّا تَرِينِ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ أَنْسِيًّا، فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (136) يَا أُخْتَ هَارُونَ (137) مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا

(134) اعتزلت وهو في بطنها.

(135) نهرا.

(136) يديعا.

(137) يا واحدا منهم.

كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا، وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَارًا شَقِيًّا، وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿مريم : 23 - 33﴾.

قال الزمخشري : «واختلفوا في نبوته : فقليل أعطوها في طفولته : أكمل الله عقله، وقيل معناه أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد» (138).

وقال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: «والابتداء بوصف العبودية لله ألقاه الله على لسان عيسى لأن الله علم بأن قوما يقولون إنه ابن الله» (139).

(د) الحواريون : ورد ذكرهم في سورة الصف.

قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارًا لِلَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ، قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ، فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عُدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (الصف : 13 - 14).

قال الإمام محمد الطاهر ابن عاشور: «والحواريون اسم أطلقه القرآن على أصحاب عيسى الاثني عشر، ولا شك أنه كان مغروفا عند نصارى العرب، أخذوه من نصارى الحبشة ولا يعرف هذا الاسم في الأناجيل» (140).

وقال بعضهم : (سموا بذلك لأنهم كانوا يطهرون نفوس الناس من الأدناس بإفادتهم العلم والدين) (141).

(هـ) رفع الله لعيسى عليه السلام :

لما اشتد اضطهاد اليهود كشعب، والرومان كسلطة حاكمة، على عيسى عليه السلام رفعه الله إليه.

(138) الزمخشري 12/3 الكشف.

(139) التحرير والتنوير 98/16.

(140) التحرير والتنوير 202/28.

(141) الفيروز آبادي : بصائر ذوي التمييز 506/2.

يقول الدكتور رؤوف شلبي في كتابه «أضواء على المسيحية: «والمساواة التي أعلنها السيد المسيح بين اليهود والسامرة - دفعت اليهود إلى مناوأة رسالة عيسى عليه السلام لذلك أعلن أرسطقراطيو اليهود عداؤهم لعيسى نبي الله ورسوله إليهم، وحاولوا الإيقاع به عند الحكومة الرومانية» (142) وهو ما أكدته القرآن الكريم.

قال تعالى : ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ، بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ غَرَضًا حَكِيمًا ۝﴾ (النساء : 157).

وقال أيضا : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ اذْهَبْ فَرَأَيْتُكَ فِي الْآلِ﴾ (عمران : 55).

فالولادة غير الطبيعية نتيجة النفخ في الروح، والموت المتبوع بالاختفاء وتأييد الله له بروح القدس، جعل اليهود يقولون بفكرة التثليث.

و - مسألة التثليث :

نعني بها الأب والابن والروح القدس. قال «أدولف هرنك» أستاذ تاريخ الكنيسة في جامعة برلين : (إن صيغة التثليث هذه التي تتكلم عن الأب والابن والروح القدس غريب ذكرها على لسان المسيح، ولم يكن لها وجود في عصر الرسل - وهو الشيء الذي كانت تبقى جديرة به لو أنها صدرت عن المسيح شخصيا» (143).

وقد نفى الله فكرة التثليث هذه بقوله : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ، لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا

(142) رؤوف شلبي : أضواء على المسيحية : 22 (بتصرف قليل). يعني بذلك أصحاب الاناجيل.

(143) محمد عزت الطهطاوي : الوعي الإسلامي ع 203 السنة 17 ذو القعدة 1401 سبتمبر 1981 .

الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَكْبِفُ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرُ فَسَيَخْشُرُهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا» (النساء 171 - 172).

(ز) الأناجيل :

الأناجيل كلمة يونانية تعني الخبر السعيد أو البشارة.

يقول عباس محمود العقاد: «وقد تداول المسيحيون في القرن الأول عشرات النسخ من الأناجيل ثم اعتمد آباء الكنيسة أربع نسخ منها بالاقتراع - أي بكثرة الأصوات - وهي إنجيل مرقس إنجيل متى، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا(144). وهو ما يعبر عنها بكتب العهد الجديد.

أما الدكتور رؤوف شلبي فإنه أشار في كتابه «أضواء على المسيحية» إلى إنجيل برنابا قال تحت عنوان : «خطورة إنجيل برنابا من حيث :

1 - إنه يتفق مع بطرس في الرأي بعدم القول بالوهية المسيح.

2 - وبشر بمحمد ﷺ بالنص.

3 - لا يتفق مع الاناجيل الأخرى في القول بصلب المسيح بل إنه جهل القائلين بذلك.

4 - ولا يقول بالتثليث(145).

(ح) دعوته .

تقوم دعوة عيسى عليه السلام على معجزات حسية وعلى المحبة وآداب الحياة :

قال تعالى : ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ إِنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَتْلَبُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (146) (آل عمران: 49).

144) العقاد : حياة المسيح م 719/1.

145) رؤوف شلبي : أضواء على المسيحية : 65.

146) تتعلق هذه الآية بمعجزاته في الطب.

فهذه الآية تدل على صدق رسالته المؤيدة بالمعجزات.

وهناك تشابه مع وجود الفارق بين السامري في عهد موسى عليه السلام الذي أوجد لهم من أثر الرسول عجلا له خوار، فأضلَّ به البعض عن اتباع موسى.

قال تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى فَنَاسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَزِجُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (طه : 86 - 89).

قال الزمخشري : «أراهم السامري أنه يلقي حليا في يده مثل ما القوا، وإنما ألقى التربة التي أخذها من موطئ حيزوم فرس جبريل، أوحى إليه الشيطان أنها إذا خالطت مواتا صار حيوانا» (147).

وقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبْدُكَ، وَإِنْ تُغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (المائدة : 115) فهذه الآية فيها نفي عنه وعن أمه في اتهامهما بالالوهية.

يقول خالد محمد خالد : «فالقرآن يرى في حياة المسيح كلها من بدايتها إلى منتهاها برهانا وثيقا من المع وأصدق براهين الإيمان بالله» (148).

(147) انظر الكشف 3/65.

(148) خالد محمد خالد : كما تحدث القرآن 148.

وقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ، وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا، وَاتَّبِعُون هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف : 59 - 61).

ولكن بني إسرائيل طلبوا منه أن ينزل عليهم مائدة من السماء.

قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونُ ^{عَدَّتْهَا} مِنَ الشَّاهِدِينَ، قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ، قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ (المائدة : 111 - 115).

فعيسى عليه السلام كآدم خلقه الله من تراب: ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ (آل عمران : 59).

لكن النصارى (ضلوا بعد عيسى فذهبوا إلى عقيدة معقدة من التثليث، وصارت كنائسهم من عهد قسطنطين كهياكل الوثنية الأولى) (149).

ط) السور والآيات التي ذكر فيها المسيح عليه السلام
ذكر عيسى عليه السلام 24 مرة في القرآن في 11 إحدى عشرة سورة على النحو التالي.

(1) البقرة : 87 . 136 . 253.

(2) آل عمران : 45 . 52 . 55 . 84.

(3) النساء : 157 . 171 . 172.

(4) المائدة : 46 . 78 . 114 . 116.

(5) الأنعام : 85.

(6) مريم : 15 - 21 . 34.

(149) محمد عبد العظيم الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن م 2 : 344.

- 7) الأحزاب : 7 .
- 8) الشورى : 13 .
- 9) الزخرف : 63 .
- 10) الحديد : 27 .
- 11) الصف : 6 . 14 .

للبحث بقية
صالح داسي